



غالباً ما نبني آمياتنا على الحظ، نترقبه في أعمدة الصحف والمجلات عند زاوية "اعرف حظك" من الأبراج... نراه في منازل عديدة، كذلك على رفوف بعض المحال والمتاجر، او حتى في مواقع الانترنت، على شكل طلاسم ومفتنيات (Lucky Charms أو Porte Bonheur)، ونبني بموجبه قصوراً من احلام مع كل ورقة يانصيب نختارها...

فهل من سبيل لنكسب الحظ حليفاً على مدى حياتنا؟!

يعتقد البعض أن حظّه جيد، فيما البعض الآخر يظنّ العكس، وكثيراً ما تتقلب الآراء بحكم الظروف؛ ولكن كيف تُوزَع "حصص الحظ" على بني البشر، وعلى أي أساس؟ هل الحظ واقع ام حاجة نفسية اشبه بالوهم؟ وهل هو قوّة غريبة ترتبط مثلاً بمواقع الكواكب والنجوم، فتتلاعب بأحداث حياتنا وتتحكّم بها بمزاجية؟ وما هو بالتالي دور الطموح والمجهود الفردي والمثابرة؟!...

لفتني رأي العالم الكيميائي الفرنسي لويس باستور في كتاب "The Life of Pasteur" للكاتب René Vallery-Radot من خلال طرحه السؤال التالي: "هل لاحظتم يوماً من هم الذين يتعرضون للحوادث الأليمة؟" ثم أستطرد "إن الحظ يفضل أصحاب العقول المستعدة" (Chance favors the prepared mind) ما يعني أن ما نسميه الحظ الجيد برأي العالم لويس باستور، يرتبط بالجهوزية الفكرية. فكيف نفهم ذلك؟

الى جانب ما تقدّم لفتني اقوال اخرى عن الحظ، أهمها ما يعود للكاتب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة "الصدفة والحظ لكسالى العقول"؛ فيما علوم الايزوتيريك (او علم الوعي الانساني) توضح أن الصدفة والحظ يعبران عن الاعتباطية في نظام الحياة، في حين أن النظام هذا يعبر عن منتهى الدقة؛

"المصادفة لا وجود لها في قانون الحياة... ولا الحظ... ولا حتى الموهبة... فكل ما نلقاه من لذة وسعادة... ومن بؤس وشقاء... هو نتيجة سبب ومسبب، يستقر في أغوار كل منا! فكل شيء قائم على نظام أدق من أن تتسرب الشعرة اليه..." هذا ما جاء في كتاب الايزوتيريك الخامس والعشرون بعنوان "مذكرات انسان" بقلم ج.ب.م.

في مسألة جهوزية الفكر، تشرح علوم الايزوتيريك، "أن المعرفة لا تطرق باب المدارك إن لم يسع المرء بنفسه اليها، والفكر هو وسيلة السعي"، كما توضح هذه العلوم أن النضج الفكري المضمخ بمشاعر الرقة هو العمود الفقري لتوازن النفس التي لا تعود تستسلم للحظ، او تقع في متاهاته... كما يوضح الايزوتيريك ايضاً أن مثل هذا التوازن النفسي القائم على القوة الفكرية هو تقنية حياتية يمكن لأي فرد أن يحققها في حياته... وهذه تُعرف بالتماهي او التماثل (simulation)، أي تخيل موقف صعب أو مشكلة عويصة ومحاولة حلها فكرياً. فالتدريب على التماهي يساعد المرء على تخطي التجارب والمواقف الحياتية نظرياً، قبل خوضها عملياً على أرض الواقع. وكلما توسع المرء من خلال عملية التماهي في تحليل كافة الاحتمالات التي قد تحدث، ثم تعمق في التمييز بين المواقف المشابهة، كان وقع الاحداث خفيفاً نسبياً عليه، فتهون عملية إحتواء التجربة والتفاعل معها بدل الانفعال حيالها. تماماً كحال التلميذ المجتهد الذي يعالج المسائل الأكثر صعوبة خلال فترة الدراسة، وعندما يحين الامتحان يجده يسيراً... فلا يكون بذلك الأوفر حظاً، بل الأكثر مثابرة وجهداً بين زملائه.

من التقنيات المهمة الأخرى، العمل على ازالة السلبيات من النفس وادخال الايجابيات مكانها. لعل أهم هذه السلبيات يمكن اختصارها في ثلاثية "خوف - خجل - تردد"، بحيث أن ازالتها تعني تقوية عنصر المواجهة في النفس كشرط اساسي لنقل النجاح في التجارب من حالة فكرية نظرية الى حيز الواقع تطبيقاً عملياً. اصف الى أن الفكر المنظم والمنفتح كفيلاً بتحسين حياة المرء من خلال تحقيق الراحة والاستقرار للإرتقاء في العمل وحلّ المشاكل وتنظيم المتوجبات اليومية إلخ... فجميعنا نتمنى ونحلم بالراحة والاستقرار والنجاح، ولكن عندما نضع هيكلية فكرية لأحلامنا يستحيل الحلم طموحاً، وعندما نضع مدة زمنية محددة لتحقيق ما نطمح اليه يصبح الطموح خطة عمل ننقلها الى حيز التطبيق العملي، فتتحول أحلامنا الى اهداف واقعية ممكنة... على هذا المستوى لا يعود مهماً أن ننجح او نفشل بل ما نحصد من وعي وخبرة ونضج ونحن نتحمل مسؤولياتنا الحياتية المختلفة... وفي خضم ذلك تبقى

المثابرة كفيلة بتحسين "حظنا"، الى أن نستدرك أن "الحظ" كما لا يفهمه السواد الأعظم من البشر، هو حليف من يرتفع فوق العقبات ويجتهد ويكافح في الحياة، بهدف تحسين نفسه والارتقاء بوعيه الفردي.

إن فكرة الحظ تتنافى والمنطق السامي للأمور، فمعاذ أن يعرف نظام الحياة العشوائية، وحاشى للعدل الالهي أن يكون ظالماً. ففي النظام هناك نتيجة ينطوي وراءها سبب، او "سبب ومسبب" كما تشرح علوم الايزوتيريك في ضوء مفهوم قانون الفعل وردة الفعل الذي يجب عن كل تسؤل ويجلي كل غموض في هذا السياق. هذا القانون هو بإيجاز قانون السبب والنتيجة، قانون الثواب والعقاب ما يعني أن أعمال الإنسان هي السبب في ما يصيبه من خير أو شر، من سعادة أو شقاء، من صحة أو مرض، وحتى من حظ أو لاحظ!

لا يبدو أن للحظ وجوداً في قاموس الحياة وقانونها. فحتى علوم الرياضيات وبالتحديد فرعَي الإحتمال والإحصاء (Probability & Statistics)، تبرهن لنا بالمعادلات العلمية الحسائية، أن نتيجة أحجار النرد لا تعرف الحظ! فعلم الرياضيات تشرح بأننا حين نرمي حجري نرد أو أكثر، لعدّة مرّات، تتبع نتيجة الأرقام التي نحصل عليها في كلّ رميّة معادلة او نمطاً معيناً يُعرف بمنحنى غوشن (Gaussian Curve)... بالتالي حتى نتيجة أحجار النرد ليست عشوائية كما يسود الاعتقاد...

كلّ شيء في الطبيعة يسير بحسب نظام لا يعرف الفوضى، بدءاً بحركة الشمس والكواكب، وصولاً الى الفصول الأربعة، ومروراً بنبض الحياة في الكيان الانساني؛ فلا بد اذاً لأحداث حياتنا أن تنتالي بموجب نظام التطور في الوجود ولهدفٍ معيّن يخص كل فرد، كما يخص البشرية ككل... والمفتاح الى ذلك هو الصدق مع النفس في مواجهة الحقائق في تفاصيل حياتنا اليومية... ففهم هذه المعادلة كفيل بتحويل الحياة الى رحلة ممتعة من البحث والاكتشاف، وإن تخلّكها التحدي الذي لا بدّ منه لشحن الطموح، وترسيخه في النفس...

بقلم المهندس شربل معوض